من وصايا السلف والعلماء

(١)

- قال أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي في «رياض النفوس» (١/ ٣٢٩) في ترجمة عبدالخالق المتعبد يعرف: بـ(القتاب)، المتوفى سنة: (٢١٠هـ):

رأيت له هذه الموعظة كتب بها إلى أخ من إخوانه فاستحسنتها، وهي:

أما بعد،

فإني أوصيك ونفسي بتقوى الله ﷻ وذكر الموت؛ فإنه لم ينجُ من نجى من الأولين والآخرين إلَّا بالتقوى، فأعدها جُنَّة لك في الدنيا والآخرة، وآثرها على هواك، ولا تقصر في شيء منها، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

أسأل الله أن يجعلنا وإياك من المتقين الصادقين الذين لا يلتمسون إلَّا رضاه وثوابه.

وطوبى للصادقين في هذا الزمان، ما أعظم ثوابهم، وأشد حالهم، وأطول غمهم، لما يعلمون ويرون من أنفسهم خلاف الحق، وما تدعوهم إليه أنفسهم من حبِّ، الدنيا، وحب رضى الناس عنهم.

فهم ماضون أنفسهم على ذلك، يريدون أن يخلصوا أعمالهم ولا يريدون رضى أحد من الناس.

فمن هنالك حزن القوم واغتموا، وهانت عليهم الدنيا، وطلبوا الإخلاص رجاء أن يخلصوا من أهوال يوم القيامة، ومن غمِّ الموت وهوله، فشغلهم ذلك عن الدنيا، وكسر قلوبهم، فانفسهم

منه في عناء، والناس في راحة.

أسأل الله العظيم أن يجعل راحتنا بعد الموت، وأن يمُنَّ علينا وعليك - يا أخي - بتوبة نصوح قبل الموت.

يا أخي أقصر نفسك عن شهواتها،

ولا تُمكنها من هواها فترديك،

فإنها لا تشبع ولا تقنع، ولا ترضى منك إلَّا بهلاكك إن أطعتها.

ولتعلم - يا أخي - أن الفقر مع الدِّين خيرٌ من الغنى مع الفجور.

وارض من الدنيا باليسير، فإن القليل منها يجزي.

ولا تشتغل بحبها ولا بطلبها عن الآخرة التي لا غنى لك عنها، ولا بُدَّ لك منها.

واعلم أنه ليس أحد ينظر لك إلَّا أن تنظر أنت لنفسك،

فاعمل لها قبل أن يحال بينك وبين العمل.

واغتنم بقية عُمرك، وصحة بدنك،

واتعب نفسك في الدنيا تجد ذلك وأنت أحوج ما تكون إليه طالب الدنيا الذي يستعرض لها ولم يدرك منها إلَّا ما قسم له، وضيَّع آخرته حتى قدم ولم يُقدِّم لنفسه شيئًا، فلا دنيا بقيت، ولا آخرة حصلت.

أسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياك - يا أخي - بما علمنا.

يا أخي عليك بتلاوة القرآن.

والصلاة من الليل ولو ركعتين، فإن في ذلك ثوابًا عظيمًا.

وإياك وكثرة الأكل؛ فإن ذلك يُقسي القلب ويعميه عن الآخرة، ويستخرج من اللسان داء ليس فيه حاجة من الكلام.

فاحفظ لسانك،

وأكثر التفكُّر،

واذكر الموتى ولا تنسه،

وانظر من تُخالط، ومن تُصاحب؛ فإن صُحبة الناس وخلطتهم اليوم هلاك،

ولا تُكثر من الأصحاب والمعارف إلَّا من ترجو نفعهم لآخرتك، وما أقلَّهم في هذا الزمان.

ولا تستوحش إلَّا لمن ترجوه أن يكون عونًا على دينك.

واحذر الناس.

واعلم أن من صحبهم اليوم يورث الغفلة في الفهم، والقسوة في القلب،

فخالفهم، واحرز دينك، وأدِّ ما وجب عليك من الحق،

وانصحهم،

ولا تُداهن أحدًا من الناس،

ولا ترضى له إلَّا بما ترضى به لنفسك،

ولا تستحي أن تأمر أحدًا بالحق وإن غضب؛ فإن ذلك لا يضرك وهو لك لازم.

ولا تُخالط من الناس إلَّا من تدان بحمل مؤنته،

وخالط من يتحمَّل مؤنتك وهو أهون عليك، وأعون لك على دينك.

يا أخي واعلم أن الله تبارك وتعالى كريم إذا علم من العبد الصادق الصدق، وهو يريد رضاه؛

وفقَّه، وأعانه، وذللَّ له الناس، وجعلهم يخضعون له، ويقبلون منه، ويتقونه.

وإذا لم يكن كذلك؛ هان عليهم، ولم يقبلوا منه.

فتمسَّك بطاعة الله تعالى،

وإياك أن تتهاون بشيء من المعاصي؛ فتهون على الله ﷻ بعد الذي رزقك من المعرفة، وبعد الذي صنع بك،

فاشكر الله تعالى يزدك،

وتضرَّع إليه يرحمك،

وليعلم منك أن أكبر همك في ليلك ونهارك رضاه،

وأنك إنما تريد البقاء في الدنيا لترضيه،

واجتنب جميع ما يكره تدخل في ولاية الله ﷻ إن شاء الله

تعالى، وتهن عليك الدنيا وأهلها.

وارض بقضاء الله تعالى في جميع أُمورك،

ولا تتهمه؛ فإنه أنظر منك لنفسك فيما أحببت أو كرهت،

فسلِّم لقضائه وارض به،

ولا تحمل على نفسك شدِّة المؤونة في الدنيا؛ فتهلك.

أسأل الله أن يجعلنا وإياك من المتحابين فيه، والصادقين المتناصحين، وأن يغفر لنا ولك كل ما أردنا به غيره، وأن يحولنا وإياك إلى ما يحب ويرضى.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته،

وصلى الله على سيدنا محمد.

